عمر المختار شيخ المجاهدين والشهداء (2)

السبت 25 أغسطس 2018 04:08 م

كتب: بقلم المؤرخ د.علي الصلابي

ظل المختار في الجبل الأخضر يقاوم الطليان على الرغم من هذه الصعوبات الجسيمة التي كانت تحيط به وبرجاله، وكانت من عادة عمر المختار الانتقال في كل سنة من مركز إقامته إلى المراكز الأخرى التي يقيم فيها إخوانه المجاهدون لتفقد أحوالهم، وكان إذا ذهب لهذا الغرض يستعد للطوارئ، ويأخذ معه قوة كافية تحرسه من العدو الذي يتربص به الدوائر في كل زمان ومكان، ولما أراد الله أن يختم له بالشهادة ذهب في هذه السنة كعادته في نفر قليل يقدر بمئة فارس، ولكنه عاد فردَّ من هذا العدد ستين فارساً وذهب في أربعين فقط.

ويوجد في الجبل الأخضر واد عظيم معترض بين المجاهدين اسمه وادي الجريب (بالتصغير)، وهو صعب المسالك كثير الغابات، كان لا بد من اجتيازه، فمر به عمر المختار ومن معه، وباتوا فيه ليلتين، وعلمت بهذا إيطاليا بوساطة جواسيسها في كل مكان، فأمرت بتطويق الوادي على عجل من جميع الجهات، فما شعر عمر المختار ومن معه إلا وهم وسط العدو، والتحمت المعركة داخل الوادي، وحصد رصاص المجاهدين عدداً كبيراً من الأعداء، وسقط الشهداء، وأصيب عمر المختار بجراح في يده، وأصيب فرسه بضربة قاتلة، وحُصرت يده السليمة تحت الفرس فلم يتمكن من سحبها، ولم تسعفه يده الجريحة.

والتفت المجاهد ابن قويرش فرأى الموقف المحزن، وصاح في إخوانه الذين شقوا الطريق للخروج من الحصار قائلاً: ((الحاجة التي تنفع عقبت ـ أي: تخلفت))، فعادوا لتخليص قائدهم، ولكن رصاص الطليان حصد أغلبهم، وكان ابن قويرش أول من قتل وهو يحاول إنقاذ الشيخ الجليل، وهجم جنود الطليان على الأسد الجريح دون أن يعرفوا شخصيته في البداية، وتم القبض عليه، وتعرَّف عليه أحد الخونة، وجاء الكمندتور داود باتشي متصرف درنة ليتعرف على الأسير، وبمثل سرعة البرق نقل عمر المختار إلى ميناء سوسة محاطاً بعدد كبير من الضباط والجنود الإيطاليين، وأخذت كافة الاحتياطات لحراسة جميع الطرق والمواقع القريبة لتأمين وصول المجاهد العظيم إلى سوسة، ومن ثم نقل فوراً إلى بنغازي عن طريق البحر.

يقول غراسياني في مذكراته:

هذا الرجل أسطورة الزمان الذي نجا آلاف المرات من الموت ومن الأسر، واشتهر عند الجنود بالقداسة والاحترام؛ لأنه الرأس المفكر والقلب النابض للثورة العربية (الإسلامية) في برقة، وكذلك كان المنظم للقتال بصبر ومهارة فريدة لا مثيل لها سنين طويلة، والآن وقع أسيراً في أيدينا.

ويقول الجنرال غراسياني عن عمر المختار أيضا: «كان عمر المختار كرئيس عربي مؤمن بقضية وطنه، وله تأثير كبير على أتباعه مثل الرؤساء الطرابلسيين يحاربون بكل صدق وإخلاص، وأقول ذلك عن تجارب مرت بي أثناء الحروب الليبية، وكان عمر المختار من المجاهدين الكبار لما له من مكانة مقدسة بين أتباعه ومحبيه، إن عمر المختار يختلف عن الآخرين؛ فهو شيخ متديِّن بدون شك، قاسٍ وشديد التعصب للدين، ورحيم عند المقدرة، ذنبه الوحيد أنه يكرهنا كثيراً، وفي بعض الأوقات يسلط علينا لسانه ويعاملنا بغلظة مثل الجبليين، كان دائماً مضادّاً لنا ولسياستنا في كل الأحوال، لا يلين أبداً ولا يهادن إلا إذا كان الموضوع في صالح الوطن العربي الليبي، ولم يخن أبداً مبادئه؛ فهو دائماً موضع الاحترام رغم التصرفات التي تحدث منه في غير صالحنا.

دخول المختار في سجن بنغازي:

وعندما وصل الأسير إلى بنغازي لم يسمح لأي مراسل جريدة أو مجلة بنشر أخبار أو مقابلات، وكان على الرصيف مئات من المشاهدين عند نزوله في الميناء، ولم يتمكن أي شخص مهما كان مركزه أن يقترب من الموكب المحاط بالجنود المدججين بالسلاح، ونقل فوق سيارة

السجن تصحبه قوة مسلحة بالمدافع الرشاشة؛ حيث أودع في زنزانة صغيرة خاصة منعزلة عن كافة السجناء السياسيين، وتحت حراسة شديدة.

محاكمة عمر المختار رحمه الله:

في الساعة الخامسة مساءً في (15 سبتمبر1931 م) جرت تلك المحاكمة التي أعد لها الطليان مكان بناء (برلمان برقة) القديم، وكانت محاكمة صورية شكلاً وموضوعاً، ودليل ذلك أن الطليان ـ قبحهم الله ـ كانوا قبل بدء المحاكمة بيوم واحد قد أعدوا (المشنقة) وانتهوا من ترتيبات الإعدام وتنفيذ الحكم قبل صدوره، وإنك لتلمس ذلك في نهاية الحديث الذي دار بين البطل وبين غراسياني؛ حيث قال له: ((إني لأرجو أن تظل شجاعاً مهما حدث لك أو نزل بك)).

ويصف الدكتور العنيزي ذلك فيقول: ((جاء الطليان بالسيد عمر المختار إلى قاعة الجلسة مكبلاً بالحديد، وحوله الحرس من كل جانب، وكان مكاني في القاعة بجوار السيد عمر، وأحضر الطليان أحد التراجمة الرسميين واسمه نصرت هرمس، فلما افتتحت الجلسة وبدأ استجواب السيد، بلغ التأثر بالترجمان، حدّاً جعله لا يستطيع إخفاء تأثره، وظهر عليه الارتباك، فأمر رئيس المحكمة باستبعاده وإحضار ترجمان آخر، فوقع الاختيار على أحد اليهود، وهو لمبروزو، من بين الحاضرين في الجلسة، وقام لمبروزو بدور المترجم، وكان السيد عمر رحمه الله جريئاً صريحاً، يصحح للمحكمة بعض الوقائع، خصوصاً حادث الطيارين الإيطاليين أوبر وبياتي)).

وبعد استجواب السيد ومناقشته وقف المدعي العام بدندو، فطلب الحكم على السيد بالإعدام، وبعد مضي فترة قصيرة من الانتظار تلى القاضي الحكم بإعدام عمر المختار شنقاً حتى الموت، وعندما ترجم الحكم إلى عمر المختار قهقه بكل شجاعة قائلاً: الحكم حكم الله لا حكمكم المزيف، إنا لله وإنا إليه راجعون، وأراد رئيس المحكمة أن يعرف ما قاله السيد عمر، فسأل الترجمان أن ينقل إليه عبارته، ففعل، وعندئذ بدا التأثير العميق على وجوه الإيطاليين أنفسهم الذين حضروا هذه المحكمة

إعدام شيخ الجهاد في بلادنا الحبيبة:

وفي يوم 16 سبتمبر من صباح يوم الأربعاء من سنة (1931 م) عند الساعة التاسعة صباحاً؛ نفذ الطليان في (سلوق) جنوب مدينة بنغازي حكم الإعدام شنقاً في شيخ الجهاد وأسد الجبل الأخضر بعد جهاد طويل ومرير، ودفعت الخسة بالإيطاليين أن يفعلوا عجباً في تاريخ الشعوب، وذلك أنهم حرصوا على أن يجمعوا حشداً عظيماً لمشاهدة التنفيذ، فأرغموا أعيان بنغازي، وعدداً كبيراً من الأهالي من مختلف الجهات على حضور عملية التنفيذ، فحضر ما لا يقل عن عشرين ألف نسمة، على حد قول غراسياني في كتاب (برقة الهادئة).

ويقول الدكتور العنيزي: ((لقد أرغم الطليان الأهالي والأعيان المعتقلين في معسكرات الاعتقال والنازلين في بنغازي على حضور المحاكمة، وحضور التنفيذ، وكنت أحد أولئك الذين أرغمهم الطليان على المحاكمة، ولكني وقد استبد بي الحزن شأني في ذلك شأن سائر أبناء بلدتي، لم أكن أستطيع رؤية البطل المجاهد على حبل المشنقة، فمرضت، ولم يعفني الطليان من حضور التنفيذ في ذلك اليوم المشؤوم، إلا عندما تيقنوا من مرضي وعجزي عن الحضور.

ويا لها من ساعة رهيبة التي سار المختار فيها بقدم ثابتة وشجاعة نادرة وهو ينطق بالشهادتين إلى حبل المشنقة، وقد ظل المختار يردد الشهادتين: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله، لقد كان الشيخ الجليل يتهلل وجهه استبشاراً بالشهادة، وارتياحاً لقضاء الله وقدره، وبمجرد وصوله إلى موقع المشنقة أخذت الطائرات تحلق في الفضاء فوق ساحة الإعدام على انخفاض، وصوت مدوٍّ لمنع الأهالي من الاستماع إلى عمر المختار؛ إذ ربما يتحدث إليهم أو يقول كلاماً يسمعونه، وصعد حبل المشنقة في ثبات وهدوء.

وهناك أعمل فيه الجلاد حبل الظالم، فصعدت روحه الطاهرة إلى ربها راضية مرضية، هذا وكان الجميع من أولئك الذين جاؤوا يساقون إلى هذا المشهد الرهيب ينظرون إلى السيد عمر وهو يسير إلى المشنقة بخطا ثابتة، وكانت يداه مكبلتين بالحديد، وعلى ثغره ابتسامة راضية، تلك الابتسامة التي كانت بمثابة التحية الأخيرة لأبناء وطنه، لقد استجاب الله دعاء الشيخ الجليل، وجعل موته في سبيل عقيدته ودينه ووطنه، لقد كان يقول: ((اللهم اجعل موتي في سبيل هذه القضية المباركة)). ونختم استشهاد عمر المختار رحمه الله بقول الله تعالى: {وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلاً وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الآخرة نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ * } [آل عِمرَان: 145].

ومن سيرة عمر المختار العطرة نستخلص دروساً وعبراً تفيدنا كثيراً في حياتنا المعاصرة؛ ليس عمر المختار رحمه الله أول من جاهد ولا أول من استشهد، ولكن كان حاله كما قال تعالى: {الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ *} [آل عِمرَان: 173] ومفتاح شخصيته الفذة: أنه آمن بالله، واستقرت معانيه في قلبه، فأصبح لا يخشى إلا الله، وهذا الصنف من المسلمين هو أقوى ما عرفته البشرية؛ وهو الإنسان الحر في أعلى معاني الحرية، جرد قلبه من الأوهام ومن الشركيات والضلال ومن الشبهات والشهوات، وخلص قلبه من كل ظلمة تحول بينه وبين دخول التوحيد الصحيح إليه.

فالفريد في سيرته: أنه أحيا شيئاً كاد يندثر، أحيا معاني الإيمان التي كان الناس قد بدؤوا ينصرفون عنها، إنه بنيان أُسّس على التقوى، فعاش مباركاً في حياته وفي مماته، والعبرة الثانية: أنه كان داعياً إلى الله بإذنه، تربى على أيدي دعاة السنوسية، فلما اكتمل وترعرع، أدى الرسالة وبلغ الأمانة وأنذر وبشر، وخيركم من تعلم القرآن وعلمه، والعبرة الأخرى: أنه كان على فهم صحيح لدينه، يأخذه كلاً لا يتجزأ، فلا هو بالتدين المنحرف، ولا هو بالتدين البعيد عن جوهر الدين، وإنما هو رجل مؤمن، يعلم أن الإسلام لا يصح أن يؤخذ بعضه ويترك بعضه، وإنما عليه أن يعمل به كله، والعبرة الأخرى: أنه لم يسعَ للشهرة، لأن المخلصين لا يبحثون عن الشهرة، وإنما يبحثون عن رضا الله سبحانه وتعالى، ولذلك جعل الله له ذكراً في الدنيا ونسأل الله أن يتغمده برحمته في الآخرة.

المراجع:

1- الثمار الزكية للحركة السنوسية، د علي محمد الصلابي، الجزء الثالث ص (513).
2- عمر المختار نشأته وجهاده ، د إدريس الحريري ، ص (65).
3- عمر المختار ، للأشهب ، ص (26).
4- مذكرات مجاهد ، محمود الجهني ، محمد مناع
5- برقة العربية الأمس واليوم، محمد الطيب، أحمد إدريس الأشهب، مطبعة الهواري، شارع محمد علي بمصر ص (439).
6- السنوسية دين ودولة ، ص (313).
7- برقة الهادئة، ص (268).